مـــقـــدمـــــــة

يطيب لى اليوم ان اضيف الى التراث الاندلسى تحقيقا لاحد مؤلفـــات لسان الدين ابن الخطيب التاريخية الادبية ، وهو كتابه « اوصاف الناس فى التواريخ والصلات » ، الذى اورده ـــ ضمن ما اورد ـــ فى مؤلفه الكبيـــر « ريحانة الكتاب ، ونجعة المرتاب » .

لقد اشتمل الكتاب الذى نحن بصدده على تراجم لشخصيات اندلسيـــة ومغربية ، معظمها ممن عاصروا ابن الخطيب ، وعاشوا احداث العصـــــر (القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) ، فيهم الكاتب والوزيـــــر والقاضى والقائد والعالم ، بل منهم من حاز اكثر من رتبة من هذه الرتب ، على نمط الشخصية البارزة فى العصر الاسلامى الوسيط . وقد بلغ عـــــدد المترجم لهم سبعا وخمسين شخصية بعد المائة ، مفتتحا « القسم الاول » منهم بما سبق للمؤلف ان اورده فى كتابه « التاج المحلى » . حيث يقول فى البداية :

« اوصاف الناس فى التواريخ والصلات »

« ومن ذلك ما صدر عنى مما ثبت فى كتاب « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » فى وصف :

« ابى جعفر ابن الزيـــات » .

... وهكذا يسترسل فى ايراد التراجم لهذا القسم ، ويبلغ عددهـــا ثمان وتسعين ، منتهيا منها بشخصية « الاديبة ام الحسين بنت احمد الطنجالى ثم يبدا فى الترجمة للقسم الثانى منها مثلما اورده فى كتابه « الاكليل الزاهـــر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر » عندما يذكر :

« ومن ذلك ما ثبت فى « الاكليل الزاهر ، فيمن فضل عند نظم التـــاج من الجواهر » ، فى وصف :

« الخطيب ابى عبد الله الساحلى المالقى الاولى » .

الى ان يأتى على شخصيات هذا القسم البالغ عددها سبعا وخمسين ، حيث ينتهى منهم « بوصف احد الفضلاء » ، دون ان يحدد اسمه ، على غير عادته فى كافة من ترجم لهم من القسمين .

وغنى عن البيان ان ابن الخطيب بترجمته لهؤلاء وغيرهم — لاسيما فى القسم الاول « من الاوصاف » — قد تمكن الى حد بعيد من ان يقدم لنا صورة شيقة ذات موضوعية ومنهجية عرفت عنه فى تاريخه وخاصة فى باب التراجم، اذا ما استثنينا بضعة افراد تناولهم قلمه ممن اظلم الجو بينه وبينهم فكادوا له او كاد لهم ، امثال القاضى النباهى صاحب « المرقبة العليا » والذى استصدر الفتوى باعدام ابن الخطيب شرعا ، والوزير ابن زمرك مؤازر النباهى فى حملته ضد ابن الخطيب ، وبضعة افراد من معاصرى وزيرنا لم يكن على وفاق معهم ، فجاءت ترجمته لهم فى ظل تلك الملابسات مشوبة بالانفعال النفسى ، ومجانبة الواقعية . بيد انه والحق يقال — من خلال مطالعاتى ودراساتى لتراجم لسان الدين عن معاصريه ولاسيما فى « اوصاف الناس » التى نحن بصددها — لم اصادف مؤرخا بتلك الدقة فى الاحاطة والشمول لمن تناولهم قلمه وصفا ، فى اسلوب شيق ، يجمع بين طلاوة العبارة ، وعمق المعانى ، وموسيقى الالفاظ ، حسبما عرف عن اسلوبه المسجع غالبا ، بعيدا عن التكلف للزخرف اللفظى ، وان كانت قيود السجع تقف عادة بالكاتب عند حد معين فى التصوير ، وخاصة فى المؤرخات ، ولكن لوحظ لدى ابن الخطيب مقدرته الفائقة فى شمول الوصف والاحاطة بالموضوع، مع التزامه السجع ، حتى لقد قيل عنه : انه لا يجيد الكتابة حتى يسجع !!

وتشير تسمية الكتاب الى المصادر التى اعتمد عليها ابن الخطيب فى استقاء معلوماته لمن ترجم لهم ، ونعنى تلك المؤرخات والتراجم ، التى تحتل كتب الصلة بالذات من بينها المحل المرموق ، ولاسيما كتاب « الصلة » لابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) ، وكتاب « صلة الصلة » لابن الزبير الغرناطى (ابو جعفر احمد بن ابراهيم) (1) الذى يعتبر وصلا لكتاب « الصلة » .. ، وكلاهما قد اشتمل على تراجم لاعلام اهل الاندلس والمغرب خاصة . كما لعبت التجربة الشخصية للسان الدين دورا هاما بالنسبة لمن ترجم لهم فى « الاوصاف » ممن عاصرهم ، ومن كتب عن كتب ، وهم قدر لا باس به بين الآخرين .

---

1) لقد نشر القسم الاخير منه المستشرق ليفى بروفنسال ، بالرباط عام 1938 م .

وينبغى الا يغيب عنا ما لابن الخطيب من مؤلفات اخرى فى هذا المجال، ولعل فى مقدمتها كتابه « الكتيبة الكامنة ، فيمن لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة » (2) ، بيد ان هذه « الكتيبة » قد قصرها على شعراء عصره، بينما « الاوصاف » قد ضمت انماطا من الشعراء والعلماء والكتاب وغيرهم ، وان من بينهم من عاصره ومن لم يعاصره . وهناك التراجم التى تخللت اهم مؤلفاته لاسيما فى موسوعة « الاحاطة » (3)

وقبل ان نستعرض « اوصاف الناس » لا تفوتنا الاشارة الى ان بعض المشتغلين بالدراسات الاندلسية عامة ، ومن تعرضوا لآثار ابن الخطيب خاصة ، ـ لم يشيروا الى كتابه هذا ، بل منهم من انكره ، رغم انه اورده ـ ضمن كتب اخرى ـ فى مؤلفه الضخم « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » الشان فى ايراده بالريحانة شان « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » (4) ، « ومعيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار » (5) و « الاشارة الى ادب الوزارة » (6)، فلعل اخراج « الاوصاف » اليوم الى النور سيساعد ـ ولاشك ـ الكثيرين من المهتمين بهذه الدراسات ـ على اجتلاء نواحى شتى فى التاريخ الاندلسى خاصة ، والاحاطة بكثير ممن ترجم لهم المؤلف فى شمول واستيعاب .

وبهذه المناسبة يجدر بى ان الفت نظر من قام باعادة تحقيق مؤلف ابن الخطيب « روضة التعريف بالحب الشريف » (7) حيث قدم لتحقيقه بمحاولة لحصر آثار ابن الخطيب ان ياخذ فى الاعتبار ان مؤلفات ابن الخطيب يصعب حصرها وتحديدها ، وقد سبقنا اكثر من باحث حول الاتيان عليها ، وبذلوا

---

2) نشره د. احسان عباس (بيروت 1963 م) .
3) سبق نشر جزاين من « الاحاطة » بالقاهرة عام 1961 م بمعرفة شركة طبع الكتب العربية بمصر ، ثم حقق المجلد الاول من « الاحاطة » الاستاذ عبد الله عنان (القاهرة 1956 م) بالقاهرة .
4) قمنا بتحقيقه ، ونشرته دار الكتاب العربى بوزارة الثقافة بمصر عام 1966 م .
5) نشر بمعرفة د. العبادى (الاسكندرية 1958 م) ضمن كتابه «مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد المغرب والاندلس » ثم قمنا بنشره مع دراسة نقدية هذا العام بالرباط بتكليف من وزارة الاوقاف المغربية .
6) حققناه (تحت الطبع)
7) حققه اولا تحقيقا علميا شافيا الاستاذ عبد القادر عطا بالقاهرة عام 1968 ، ثم اعاد تحقيقه محمد الكتانى (بيروت 1970 م) .

جهد المستطاع فى تسليط الاضواء عليها ، تحدوهم الرغبة العلمية الرائدة ، ويزينهم التواضع العلمى ، فلم يقطعوا فى بعض المؤلفات المنسوبة الى لسان الدين ، بله نسبة الخطا الى اى باحث تخيلا لعدم استناده الى دليل ، فذلك مما يتجافى وقواعد التحقيق والاستقراء الكامل ، وها هو « اوصاف النـــاس فى التواريخ والصلات » لابن الخطيب السلمانى لسان الدين ــ اقدمه محققا للقراء كمؤلف ثابت وارد بين مؤلفاته الاخـــرى .

ولقد وفقت ــ بهذه المناسبة ــ اذ قرات للاستاذ احمد امين فى هـــذا الشان بما اعتقده الفصل ، والحكم الذى لا معقب لحكمه .

يقـــول :

« ... ثم لا تكن مفرورا ، تعتقد انك على حق مطلق ، وان غيرك ان خالفك على باطل مطلق ، بل وسع صدرك ، فاجعل حقك يحتمل الخطـــا ، وباطل غيرك يحتمل الصواب ، وقلما يعرف احد الحق كل الحق ، ويقع اخوه فى الباطل كل الباطل . فحقك مشوب بباطل كثير ، وباطل غيرك مشـــوب بحق كثير ، فاصغ الى رايه ، واعمل عقلك فيه ، واستخرج منه خير ما فيه ، وان اداك ذلك الى ان تعدل عن رايك الى رايه فافعل ، ولا تشمئز من ذلك ، فالحق يعلو ولا يعلى عليه » (8) .

فما بالنا والامر يتصل بمسائل علمية ، اخص خصائصها الاجتهـــاد ، واهم ما تتصف به عدم القطع فى امور لافكاك من احتمالاتها ، خاصة تلـــك المؤرخات والوثائق !!

لقد ورد كتاب « اوصاف الناس فى التواريخ والصلات » ضمن مخطوط ابن الخطيب الادبى الضخم « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » الذى يعد من اضخم واهم كتبه بعد « الاحاطة » ، وفى مقدمته ما يشير الى سبب تسميته ، حيث يقول : « وسميته لتنوع بساتينه المنشوقة وتعدد افانينه المعشوقـــة « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » ، مشتملا على عدة ابـــــواب ذات موضوعات تاريخية وادبية ، وهى فى جملتها كما يلى ، مرتبة حسب ورودها بالمخطوط :

ــ رسائل سيد المخلوقات ، عليه وعلى آله ازكى الصلوات .
ــ مراجعات ، وتهنئة بفتوحـــات .
ــ صدقـــات ، وبيعـــات .

---

8) احمد امين « الى ولدى » ص 178 ــ 179 (بيروت ط 3 عام 1969)

- شكر على هدايا واردات .
- تهـان بمسـرات .
- تعاز على نائبـات .
- استظهـار على مساعدات ، واستنجاز عدات .
- شفاعات ، وتقرير مـودات .
- جمهور الاغراض السلطانية .
- مخاطبة الرعايا والجهات .
- ظهائـر سلطانية .
- اخوانيـات .
- دعايـات وفكـاهـات .
- رسائل ومقامـات .
- اوصاف اعيان فى تواريخ وصلات (موضوع البحث والتحقيق) .
- مذكـرات وموقـفـات (ملحق التحقيق) .

وعن مجمل هذه الاقسام التى احتوتها « الريحانة » يتحدث لسان الدين فى نفس « المقدمة » فيقول : « وقسمته الى حمدلة ديوان ، وتهنئة اخوان ، وتعزية فى حرب للدهر عوان ، واغراض الوان ، صنوان وغير صنوان » ، ثم يفصل لنا محتوياته فى الديباجة على النحو الاتى :

تمهيدات من اوائل المصنفات ، وفى هذا الباب يختار المؤلف نبذا من مقدمات كتبه ، ورسائله السابقة ، مثل « بستان الدول ، وتخليص الذهب فى اختيار عيون الكتب (لم يصل الينا هذا الكتاب بعد) وجيش التوشيح » و « الاكليل الزاهر » و « الاحاطة » و « كتاب الطب » و « روضة التعريف بالحب الشريف » و « استنزال اللطف الموجود فى اسرار الوجود » . ثم يتبع ذلك ابواب التحميدات ، والفتوحات الواقعة ، والمراقعات التابعة ، والصدقات والبيعات من الاغراض السابقات ، وكتب الشكر على الهدايا ، وكتب التهانى الى آخر هذه الابواب التى فصلناها مرتبة بالارقام .

وتجدر الاشارة هنا الى ان معظم رسائل الريحانة قد جاء مؤرخا بتواريخ متاخرة ، مثل عام سبعين واحد وسبعين وسبعمائة ، الامر الذى يشير بوضوح الى ان ماده ورسائله قد جمعها ابن الخطيب بغرناطة اثناء وزارته الثانية ، وقبل قدومه الى المغرب للمرة الاخيرة .

هذا ، وتوجد للريحانة عدة نسخ تضمنت معظمها « الاوصاف » اشهرها وابرزهـــا :

1 ــ نسختـــان بـــدار الكتـــب بالقـــاهـــرة .

الاولـــــــى : يوجد منها الجزء الاول وبعض الجزء الاخيـــــر فى مجلدين وبخط مغربى ، فى اثنائهما ثقوب ونقص واضطراب . وهذان الجزآن مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونـــــس ، ويقعان فى 309 لوحة ، تحت رقم 19875 ز .

الثانيـــــة : بها نقص يسير من الخطبة ، اولها بعد الديباجـــة « ... وسميته لتنوع بساتينه المنسوقة ، وتعدد افانينه المعشوقـــــة ، بريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ... الخ » ، وتقع هذه النسخة فى مجلديـــن كتبا بخط النسخ ، وقد نقلا عن الجزاين المخطوطين المقيدين بـــدار الكتـــب المصرية ، برقم 524 ادب س ، ويقعان فى 460 ــ 650 صفحة ، ومسطرتها 21 سطرا ، وقد سجلا تحت رقم 3459 ز .

2 ــ نسخـــة الاسكوريـــال بمدريـــد .

والمسجلة تحت رقم 1835 من فهرس الفزيرى ، وهى نسخة جيـــدة للغاية ، وقد كتبت بخط اندلسى باهت ، وتقع فى 281 لوحة كبيرة ، اعنى 562 صفحة ، بكل صفحة 27 سطرا ، وفى كل سطرا 12 كلمة فى المعـــدل العام ، وقد ذكر فى نهاية هذه النسخة انها كتبت فى سنة 888 هـ .

وهذه النسخة عبارة عن مختارات من كتب ابن الخطيب ، ثم مجموعة كبرى من الرسائل عن السلاطين الذين وزر لهم بالاندلس والمغرب او عمل معهم : (يوسف الاول ابو الحجاج ، ومحمد الخامس الغنى بالله ، وابـــو الحسن المرينـــى) .

3 ــ قطعة مخطوطة بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما ، مكتوبة بخط مغربى ، وهى عبارة عن السفر الثالث من « الريحانة » وعدد لوحاتها 119 لوحة كبيرة (رقم 252) .

4 ــ قطعة مخطوطة اخرى فى مكتبة اوبسالة بالسويد، تتالف من154 لوحة كبيرة مزدوجة مكتوبة كذلك بخط مغربى ، وتنتهى بالسفر الاول (252 تورنبرج) .

5 ــ وفى مكتبة الجزائر الوطنية قطعة كبيرة من « الريحانة » تشتمل على 181 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، مكتوبة باكثر من خط ، معظمه قديم ، والبعض ــ وخاصة الوسط ــ قد اكمل مؤخرا ، او بتاريخ احدث بعبارة ادق ، وهذه النسخةتشتمل على النصف الثانى والاخير من «الريحانة» حيث تبدا بالفصل الذى يحمل عنوان « جمهور الاغراض السلطانيات » ، ويغلب على الظن ان هذه النسخة هى اقدم جزء من المخطوط رقم (2010).

6 ــ وفى خزانة القرويين بفاس قطعتان من « ريحانة الكتاب » الاولى تضم السفرين الرابع والخامس وتقع فى 99 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، فى كل صفحة منها 27 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى ، وفى نهايتها تاريخ الفراغ من نسخها ، وهو يوم الاحد قبل الزوال ، عام تسعة عشر ومائة والف (لم يذكر تاريخ اليوم أو الشهر) ، وهى برقم 40 ــ 565 ، واما الثانية فهى برقم 3011 .

7 ــ اما فى الخزانة العامة بالرباط فتوجد عدة نسخ من « الريحانة » اظهرها النسخة الكتانية ، المسجلة برقم 331 ك ، وهى عبارة عن مجلد ضخم يتالف من 609 صفحة من القطع الكبير ، وفى كل صفحة 25 سطرا ، وقد كتبت بخط مغربى واضح، وفيها زيادات حديثة، اغلبالظن انها ليستمن انشاء ابن الخطيب ، ولاسيما الجزء الخاص بذكر ملوك بنى امية ، والخلفاء من بنى العباس ، وهو غفل من تاريخ كتابته . اما النسخة الاساسية للريحانة فتقع فى 599 صفحة .

وما دمنا بصدد « المكتبة الكتانية » التى ضمت الى الخزانة العامة بالرباط ، فهناك نسخ اخرى من الريحانة تنسب اليها ، فاحداها نسخة اخرى ناقصة ، قد اصابها البلى من القدم ، ورقمها 705 ك ، وتقع فى 221 لوحة بكل صفحة منها 23 سطرا مكتوبة بخط مغربى معقد ، وفى نهايتها تمام نسخها وهو 4 محرم 1079 هـ . كذلك تنسب للمكتبة الكتانية نسخة اخرى ناقصة ايضا ، تقع فى 172 لوحة بخط مغربى ، ورقمها ، 1075 ك ، وهذا بالاضافة الى نسختين كتانيتين تليان النسخ السابقة فى الاهمية ، الاولى برقم 1567 ، والاخرى برقم 3011 ، وهذه الاخيرة ناقصة من اولها ، مبتورة من آخرها .

8 ــ وتوجد بنفس هذه الخزانة ــ غير ما ذكرنا ــ سبع نسخ من « الريحانة » احداها نسخة كاملة ، عبارة عن مجلدين من الحجم المتوسط ، ويشتمل اولها على 222 لوحة ، مكتوبة بخط مغربى ظاهر ، والمجلد الآخر عبارة عن 215 لوحة من نفس الحجم ، وقد كتبت بنفس الخط المغربى الواضح

وهذه النسخة برقم 2195 . النسخة الثانية : وتشتمل على السفرين الرابع والخامس من « الريحانة » ، وعدد لوحاتها 145 لوحة من الحجم الصغير ورقمها 600 ، الثالثة : عبارة عن النصف الثانى من « الريحانة » ، وتحتوى على الاسفار الرابع والخامس والسادس ، وتقع فى 186 لوحة ، الرابعة : قطعة صغيرة ضمن مجموع يتألف من 28 لوحة وتشتمل على السفر الاول من الريحانة والخاص بالتحميدات ومقدمات الكتب الخاصة بابن الخطيب ، وهى متآكلة وقديمة ، وتحمل رقم 4585 . الخامسة : عبارة عن مجلد قديم ، يحتوى على 174 لوحة كبيرة ، به نقصان من اوله ومن آخره ، يبدا بنهاية الفصل ذى العنوان (جمهور الاغراض السلطانية) ويشكل هذا المجلد بمشتملاته الجزء الثانى من النسخة الكاملة ورقمه 437 . السادسة : قطعة من الريحانة ذات حجم متوسط عدد لوحاتها 57 لوحة ، وتشتمل على السفر الثالث ، وقد كتبت بخط مغربى ، ورقمها 1207 ، والسابعة والاخيرة مجموعة من الاوراق البالية تشتمل على 40 لوحة كبيرة ، قد كتب على الصفحة الاولى منها « السفر الثالث من ريحانة الكتاب » ، وفى نهاية اللوحة الاخيرة عبارة « كمل السفر الخامس » ورقمها 6400 .

9 ــ وهناك نسخ اخرى تحتويها المكتبات الخاصة ولاسيما فى المغرب ولا يتسنى للباحث الاطلاع عليها فى يسر وسهولة ، كما هو الحال فى بعض المكتبات التى اتينا على ذكر ما ورد بها من نسخ « الريحانة » وقد رايت سفراً منها مصادفة فى مكتبة صديقى الاستاذ عبد الكبير الفهرى الفاسى بالرباط ، وتصفحتها فوجدت الجزء الخاص بالرسائل السلطانيات ، وخاصة منها ما يمثل العلاقات السياسية التى كانت سائدة بين الحفصيين وبين ملوك بنى نصر ، فى منتصف القرن الثامن الهجرى .

وانما افضت الحديث فى استعراض ما يتعلق بالنسخ التى تقصيتها من الريحانة هنا وهناك لامرين :

1 ــ ان مدار البحث حول كتاب ابن الخطيب « اوصاف الناس فى التواريخ والصلات » وهو جزء من « الريحانة » ، ويمثل السفر الاخير منها ، حيث يختتم المؤلف هذا المؤلف الضخم ، بعد الاوصاف ــ بكتب الزواجر والعظات .

2 ــ اننى استخرت المولى ــ جلت قدرته ــ وعكفت منذ وقت ليس بالوجيز على تحقيق هذا المؤلف الادبى التاريخى الكبير « الريحانة » ، وقطعت فى ذلك شوطا ليس باليسير ، حتى وفقنى الله الى تحقيق الاجزاء التالية منه ، وهى :

1 ــ الرسائل السلطانية (وتمثل القدر الاعظم من الكتاب)

2 ــ معيار الاختيار (تحقيق جديد به زيادات ، مع دراسة نقدية)

3 ــ اوصاف الناس (موضوع هذا الكتـــــاب)

4 ــ الاشارة آداب الوزارة (تحت الطبع)

5 ــ مقامة السياسة (تحت الطبـــــع)

6 ــ كتب الزواجر والعظات (نشرت جزءا منها بالدوريات العلميـــة بالمغرب) وهى ملحق هذا التحقيق والدراسة .

وتتمة للفائدة فقد رأيت الحاقها بـــ « الاوصاف » كاملة ، خاصة وان ابن الخطيب جرى فى موضوعها ومنهجها على نفس المضمار للاوصاف وقد بلغت عشرين لوحة من نهاية مخطوط « الريحانة » ، وهى عبارة عن اربع رسائل بهذا المضمون ، اولاها كتبها لسان الدين ابن الخطيب الى معاصره الخطيب ابن مرزوق ، وهى الرسالة الوحيدة من بين الاخريات التى نص فى ديباجتها على اسم صاحبها ، اما الثلاث الاخر فقد تعمد اغفال ذكر اصحابها، مكتفيا بقوله فى بعضها « الى بعض الفضلاء » ، وفى البعض الآخر لم يذكـــر شيئا من هذا او ذاك . وقد سطر المؤلف رسائله هذه عامة بما طبع عليه فى هذا المجال من جنوح الى المحسنات البديعية ، قد تكلف اثناءها هذه القيود اللفظية ، مضمنا اياها الكثير من ابيات الشعر ، منها ما ينسب اليه ومنها ما جاء به اقتباسا فى مناسبته . والغاية التى قصد اليها فى الجملة هى الترغيب والترهيب والتزهيد فى متاع الدنيا ، مستشهدا فى كثير من افكارها باحداث الدهر ونكباته ، جاعلا من تجربته الشخصية مجالا للتنظير فى هذه الحياة ، واضعا هذه التجربة فى متناول الاستيعاب ، عبرة لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد ، وسنلحظ من خلال عرض هذه الرسائل مقدار الصلـــة التى كانت تربط ابن الخطيب بمعاصريه الذين حرر اليهم هذه الكتب الفريدة ، فهم بين وزراء وقضاة وكتاب ، قد جمعتهم الاحداث التى عاشوها وعايشوها، بل لقد مر كل منهم بما يشبه فى الجملة نفس الظروف التى مر بها الآخر .

وفيما يتصل باغراض « كتب الزواجر والعظات » هذه نرى ان تلـــك الاغراض قد سبق بها ابن الخطيب من ادباء وشعراء المشرق ، وخاصة ابان العصر العباسى كما سنذكر ، بل ان التذكير بالآخرة وحث الهمم للتزود لها ، والاشعار بالوعد والوعيد فى يوم الحساب ، كل هذا وامثاله قد طرقه ادباء العرب الجاهليون ، ومنهم ــ على سبيل المثال ــ فى الميدان الخطابـــى

« قس بن ساعدة الايادى » والمعروف بخطبته الشهيرة التى منها « ايها الناس، اسمعوا ، وعوا واذا وعيتم فانتفعوا ، من فات مات ، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت» .. الى آخر ماجاء بها من هذا المضمون، حتىكان العصر العباسى بطغيان مظاهر الحضارة والمدنية ، وانغماس السواد من الشعوب الاسلامية فى ملذات الحياة ، مما دفع بطبقة خاصة من الادبـــاء والشعراء ــ ولاسيما الفلاسفة منهم ــ الى الجنوح نحو ادب الحكمـــة والموعظة وتذكير الناس بيوم الحساب ، وقد اشتهر من بين هؤلاء « ابـــو العتاهية » اسماعيل بن القاسم (103 ــ 211 هـ) فى عصر الرشيد ، ثم الامين والمامون ، فقد عد ما قاله فى الزهد والامثال من اجود ما قال ، ويمتاز عن غيره ــ فى هذاالفن ــ بقلة تكلفه ، وسهولة الفاظه ، حتى كادت تخرج الى حد الابتذال ، ولما سئل فى ذلك كانت حجته انه يقصدالى العظة والزهد ، فينبغى ان يكون شعره مفهوما لدى الناس على السواء ، وقد اقتفى اثره فى ذلك بعض الشعراء فى المشرق والمغرب ، فمن قوله يعظ الرشيد :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفـــس ... واعلم بان سهام الموت قاصـــدة
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكهـــا ... ولو تسترت بالابـــواب والحرس
لكـــل مـــدرع منا ومتـــــرس ... ان السفينة لا تجرى على اليبـــس

وعليه ، فيمكن اعتبار لسان الدين ابن الخطيب من الادباء الذين تاسوا فى هذا اللون الادبى بابى العتاهية واضرابه ، وكان مما افاض به فى ذلـــك الرسائل الادبية التى بعث بها الى الخواص من اصدقائه المعاصرين ، والتى نحن بصدد البحث فيها الآن ، مضافا الى هذا اشعاره التى نظمها ــ فى نفس الغرض ــ فى المناسبات الخاصة ، ومنها قصيدته قبيل مصرعه ، حينمـــا توقع مصيره المحزن :

بعدنا وان جاورتنـــا البيـــوت ... وجئنـــا بوعـــظ ونحن صمـــوت
وانفاسنـــا سكنـــت دفعـــة ... كهجر الصلاة تـــلاه القـــوت
وكنا عظاما فصرنـــا عظامـــا ... وكنا نقوت فها نحـــن قـــوت
وكنا شموس سماء العـــــلا ... غربن فناحـــت عليهـــا البيـــوت
فكم خذلت ذا الحسام الظبـــا ... وذا البخت كم جدلتـــه البخـــوت
وكـــم سيق للقبـــر فى خرقـــة ... فتى ملئت من كساه التخـــوت

فقل للعدا ذهب ابن الخطيـــب فقل يفرح اليـــوم من لا يمـــوت
فمـــن كـــان يفـــرح منهـــم له فقل يفرح اليوم من لا يموت (1)

ومن المقرر ان الانسان يتاثر بالنصيحة كما يتاثر بالبيئة المحيطة به ، واحيانا تجد النصيحة الاذن والقلب الواعيين فتعمل عملها ، ولهذا نجد القرآن الكريم والسنة النبوية تنصحان المؤمنين ، فامر كلاهما بالعدالة والصـــدق والعفة وما الى ذلك ..

« ولامر ما اتفقت الامم وحكماءها على العناية بالنصائح ، فالحكيـــم قس بن ساعدة له نصيحته المشهورة ولقمان الحكيم نصح ابنه كما هو مذكور فى القرآن ، وملوك الفرس نصحوا الناس بنصائحهم المسماة «جويدان خرد» ولست اذهب بعيدا ، ففى القصص العربى ان عبد الله بن الزبير ومصعب ابن الزبير وابا جعفر المنصور تذكروا ابياتا من الشعر ، فتشجعوا ورموا بانفسهم فى حومة القتال بعد انشائها .. (2) .

ولا نغفل الاشارة ــ بهذه المناسبة ــ الى ان كتـــب « الزواجـــر والعظات » قد كانت خاتمة مؤلف لسان الدين الادبى التاريخى « ريحانـــة الكتاب ، ونجعة المنتاب » وذلك فى كافة نسخها المتكاملة ، وحيث يشيـــر المؤلف بنفسه الى ذلك بقوله :

« تم الكتاب بحمد الله المعين ، وبتمامه كمل جميع الديوان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم الانبياء والمرسلين ، صلاة تحل العقد، وتفرج الكرب ، آمين رب العالمين ، وسلم كثيرا الى يوم الدين (154 : ا) »

ونعود ــ بعد هذا الاستطراد الوجيز ــ لنذكر ان الاعتماد فى تحقيـــق ودراسة « اوصاف الناس » موضوع هذا الكتاب وكذا « الزواجر والعظات » قد وقع على نسخة الاسكوريال للريحانة بمدريد (1835 الغزيرى) وقـــد وقعت لوحات « الاوصاف » من بين الكتاب فى 65 لوحة من القطع الكبير ، ومسطرتها 15 سطرا بكل صفحة من لوحاتها المزدوجة .

---

1) ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 342 والمقرى فى «ازهار الرياض» ج 1 ص 231 .

2) احمد امين فى كتابه « الى ولدى » ص 163 ــ 154 ، بيروت ط 3 عام 1969) .

وبعد ، فالى الباحثين والدارسين من المشتغلين خاصة بتـــراثنـــا الاندلسى المغربى اقدم كتاب « اوصاف الناس فى التواريخ والصلات » آملا ان اكون بهذا التحقيق قد اسهمت ــ بالقدر الذى توفرت عليه فى هذا المجال ــ بلبنة اخرى فى هذا التراث التليد ذى الطرافة التاريخية المنشودة خلال تلك الفترة من فردوسنا المفقود .

وما توفيقى الا بالله ،

دكتـــور

محمد كمال شبانـــة

استاذ التاريخ والحضارة الاسلامية
بجامعـــات المغرب

القاهرة /٢-٣-٢٠٠٢

المؤلف

لسان الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن احمد ، السلماني الاصل ، اللوشي الولادة ، الغرناطي التربية والمرتع ، المغربي النزوح والوفاة .

ولد ـ رحمه الله ـ بمدينة لوشة LOJA في 25 رجب 713 هـ (16 نوفمبر 1313 م) ، وتربى في احضان اسرته التي عرفت بالاصالة علما وجاها ، ونشا في العاصمة غرناطة ، حيث تلقى بها دراسته على ايدى جهابذة العلماء والادباء يومئذ ، فقد كانت العاصمة النصرية حينئذ اعظم مركز للدراسات العلمية والادبية في ذلك الجزء الغربي من العالم الاسلامي .

وكان من الطبيعي ان يتاثر لسان الدين سياسيا بحكم منصب والده ، الذي شغل وقتئذ منصب الوزارة في بلاط ملوك بني نصر ، حيث وزر للسلطان يوسف بن اسماعيل ابن الاحمر (733 ـ 755 هـ / 1333 ـ 1354 م) فلما توفي الوالد دعي ابن الخطيب الابن ليشغل منصب ابيه وهو في ريعان الشباب (28 عاما) كامين سر اولا لاستاذه رئيس ديوان الانشاء ابو الحسن علي ابن الجياب ، ثم تقلد ديوان الانشاء بعد وفاة شاغله ، واظهر من البراعة والكفاءة في هذه المناصب ما جعله اهلا لثقة السلطان المذكور ، ويتحدث ابن الخطيب عن تلك الفترة في « الاحاطة » فيقول « فقلدني السلطان سره ولما يستكمل الشباب ، ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ، ورسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة الى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ، ورمى الى بخاتمه وسيفه ، وائتمنني على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل امتناعه (1) » وبهذا يصح ان نطلق على هذه الفترة من حياة ابن الخطيب السياسية خاصة الفترة الذهبية (741 ـ 755 هـ / 1340 ـ 1354 م) وكانت في فجر حياته ، وعنفوان شبابه .

---

1) المقرى في « نفح الطيب » ج 3 ص 44 .

ولما توفى سلطانه يوسف الاول يوم عيد الفطر 755 هـ (1354 م) وخلفه فى الملك ولده الغنى بالله محمد الخامس ، ابقى هذا على وزير والده ابن الخطيب فى بلاطه ، واسفره بدوره الى سلطان المغرب يومئذ ابى عنان المرينى عام 755 هـ ، اى عقب توليه مقاليد امور المملكة ، فحقق لسان الدين نجاحا ملحوظا فى تلك السفارة ، ولعل ابرز مظاهر هذا ما كان من توثيق عرى الصلات بين غرناطة والمغرب ، وتوالى العون الحربى من فاس، لمقاومة اطماع قشتالة واراجون النصرانيتين للاستيلاء على آخر معاقل المسلمين يومئذ ((غرناطة)) .

وهكذا احتل ابن الخطيب مكانة مرموقة من بلاط الغنى بالله ، حيث جمع فى عهده بين وزارة القلم ووزارة السيف ، فلقب بـ ((ذى الوزارتين)) ، ويمكن اعتبار هذه الفترة امتدادا للفترة الذهبية من حياته ، فقد نوه بها صاحبنا فى ((الاحاطة)) ايضا ، فقال . ((ولما هلك السلطان (يعنى يوسف الاول) ضاعف ولده حظوتى ، واعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى، الى ان كانت عليه الكاينة ، فاقتدى فى اخوه المتغلب على الامر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله اهل الشحناء من اعوان ثورته على القبض على ، فكان ذلك .. وتقبض على ، ونكث ما ابرم من أمان (2))) .

ويرمى لسان الدين بـ ((الكاينة)) المذكورة الى تلك الثورة التى تزعمها اخو السلطان الغنى بالله والمسى الامير اسماعيل ، فكان من نتيجة ذلك نفى ابن الخطيب مع سلطانه المخلوع الى المغرب ، وبقى به قرابة ثلاث سنوات (760 ــ 763 هـ / 1358 ــ 1361 م) بمدينة سلا ، حيث انقطع للبحث والتاليف، بعد ان وفر له بنو مرين يومئذ وسيلة المقام امنا ورغد عيش، فكانت هذه الفترة من حياة مؤرخنا فترة الخصوبة الثقافية ، ولعل من مظاهرها مؤلفاته وابحاثه طيلة هذه المدة .

وعاد السلطان الغنى بالله مرة اخرى الى الاندلس اثر انقلاب ضد اخيه ((المتغلب على الامر)) ، وتربع على العرش من جديد بدعوة من الثوار الجدد ، ونادى وزيره ورفيق النفى ابن الخطيب ، فوصل هذا الى ((غرناطة)) ليحتل سابق حظوته ، بيد ان تلك الحظوة لم تدم طويلا ، فقد شعر لسان الدين بما كان يحاك حوله من دسائس ، وينسج من سعايات للايقاع بينه وبين الغنى بالله ، الامر الذى اضطر معه وزيرنا الى ان يحزم امره على مغادرة الاندلس ، ثم اللجوء الى المغرب نهائيا ، وكان منه ذلك على صورة فتحت الباب على مصراعيه للمتقولين والمناهضين له ، فقد استاذن ابن الخطيب

---

2) المصدر السابق .

السلطان فى التفتيش على الشواطىء الاندلسية ، مما اوغر صدر الغنى بالله عليه ، اذ تبين خديعته ..

وحل ابن الخطيب لاجئا سياسيا على المغرب ، وكان على عرشه حينئذ السلطان ابو سالم المرينى ، حيث اكرم وفادته ، واقطعه الاراضى ، ورتب له الرواتب ، ولكن تقلبات الاحداث بالمغرب منذ ذلك الحين ، واسهام « غرناطة » فى جوانب من هذه التقلبات ، بغية اقصاء بعض الامراء المرينيين المناهضين لسياسة بنى الاحمر ، ثم ما كان من تتبع بلاط بنى نصر لخطوات لسان الدين ومطالبتهم براسه ...

كل ذلك كان كفيلا فى النهاية — عندما واتت الظروف لصالح السلطان الغنى بالله فى فاس — بان يقبض على ابن الخطيب وتكون عاقبته على النحو المعروف ، من مساءلة حول ما اتهم به من زندقة وما الصق به من الحاد ، فكان ان افتى الفقهاء بموته شرعا ، وكان هذا فى اواخر عام 776 هـ ، حيث خنق بمحبسه ، ثم احرق ، ودفن — رحمه الله — قرب باب المحروق (لانسبة بين اسم هذا الباب ومصرع ابن الخطيب) فى فاس . وقد امكن للمقرى صاحب « نفح الطيب » الاستدلال على القبر بعد فترة من الحادث المؤسف .

هذا ، ويعد ابن الخطيب موسوعة علمية نادرة ، ولاسيما فى اخريات العصر العربى بالاندلس ، ومؤرخا يكاد يكون فريدا ، وخاصة فى فترة عز فيها التاريخ بفعل الاضطرابات التى كانت تجتازها الاندلس بالذات يومئذ . وناهيك بمؤلفاته العديدة — المتنوعة (3) والتى قاربت الستين ، بيد ان ما قدر له ان يبقى منها يقل عن هذا ، وقد نشر بعض منه تراثا انسانيا افاد منه الباحثون شرقا وغربا ، فكان لسان الدين بذلك حقيقا بتنويه المستشرقين والمؤرخين القدامى منهم والمحدثين .

---

1) راجع ذكر كتبه فى « الاحاطة » .